مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 16 العدد: 01 السنة 2024 ص 15 - 31

تاريخ الإرسال: 2023/06/20 تاريخ القبول: 2024/05/06
تاريخ النشر: 2024/05/16

تحول العالم من منطق الأيديولوجية الإعلامية لتدفق المعلومات إلى منطق التكنولوجيا ذات التدفق الفائق الحر للمعلومات

The overall shift from the media ideology logic of information flow to the logic of the super free flow of information

محمد رزين [1]؛ مصطفى جلطي [2].
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس (سيدي بلعباس),
[1] rezine.mohammed@yahoo.com [2] djelti.mostafa@yahoo.com

الملخص:

لقد مهدت التنظيرات التي أسست للتوجهات الإعلامية الكبرى الفهم الإنساني للظاهرة الإعلامية، خصوصا ظاهرة تدفق المعلومات داخل المجتمعات، وهو التدفق الذي يتغير من مجتمع لآخر على حسب طبيعة العقيدة الإعلامية الكبرى التي يدين بها المجتمع، وهذا ما يمكن أن نسميه بمنطق الأيديولوجية الإعلامية لتدفق المعلومات والذي يمكننا حصره في ثلاث توجهات إعلامية كبرى: التوجه السلطوي، التوجه الليبرالي، والتوجه الاستقلالي. إلا أن هذا المنطق الأيديولوجي سرعان ما تلاشى أمام المنطق التكنولوجي الذي أسقط كل الاعتبارات المتعلقة بخصوصيات المجتمعات وطبائع الأنظمة السياسية إذ أصبحت المعلومات متاحة لكل من يملك الجهاز المتصل بشبكة الانترنيت، وبهذا أصبح لإشكالية تدفق المعلومات بعدا

تكنولوجيا يرتبط بحجم التغطية وسرعة التدفق وإمكانية الولوج إلى المواقع ومصادر المعلومات بالإضافة إلى ارتباطه برقمنة الاقتصاد وكذا مستوى اقتصاد المعرفة للدولة.

تتطرق الدراسة لشرح هذه التفاصيل لغرض توضيح العوائق التي تواجه تدفق المعلومات في العالم الثالث.

الكلمات المفتاحية: فلسفة الإعلام، النظام الإعلامي، تدفق المعلومات، التعددية الإعلامية، التكنولوجيا.

Abstract:

The theories that established the major media trends paved the way for the human understanding of the media phenomenon, especially the phenomenon of information flow within societies, which is the flow that changes from one society to another according to the nature of the major media belief that the society owes, This is what we can call the logic of the media ideology of information flow, which we can limit to three major media orientations: the authoritarian orientation, the liberal orientation, and the independence orientation. However, this ideological logic quickly vanished in front of the technological logic that dropped all considerations related to the peculiarities of societies and the nature of political systems, as information became available to everyone who owns a device connected to the Internet. Thus, the problem of information flow has a technological dimension that is related to the volume of coverage, the speed of flow, and the possibility of access to sites and information sources, in addition to its link to the digitization

of the economy, as well as the level of the knowledge economy of the state.

The study deals with explaining these details for the purpose of clarifying the obstacles facing the flow of information in the Third World.

Keywords: Media philosophy, media system, information flow, Media pluralism, technology.

المؤلف المرسل: رزين محمد، الإيميل: rezine.mohammed@yahoo.com

1.مقدمة:

كانت المعرفة قبل ظهور الطباعة حكرا على الفلاسفة الذين يشتغلون على توليدها، وبتتبع تطور وسائل الاتصال عبر تاريخ الإنسانية نجد أن المعرفة كانت حكرا على رجال الحكم والنبلاء ورجال الكنيسة، وذلك لقربهم من المكتبات والفلاسفة ورجال الحكمة والمعرفة. وهذا ما جعل من حركة تطور المجتمعات الإنسانية بطيئة جدا منذ عصر الإشارات والرموز وكهف كرومانيون إلى قبيل ظهور الطباعة، لقد أحدثت الطباعة انفجارا حقيقيا في حركة تدفق المعلومات وتطور المجتمعات الإنسانية.

فقد أسهمت الطباعة منذ بدايتها في طبع الكتاب المقدس و انتشاره و كذا طبع المعرفة والأخبار بكل أنواعها ونشرها. هذا ما يمكن أن نسميه بدمقرطة المعلومة والمعرفة بعد أن كانت حكرا على رجال الدين والسياسة. (أورد العالمان الأمريكيان ديفلير و روكيتش في كتابهما (2002) أن الناس قبيل ظهور الطباعة

كانوا ينسخون الكتب في أوروبا بطريقة يدوية متعبة وهذا ما كان ينجم عنه نسخ عدد قليل و محدود من الكتب ذات أخطاء كثيرة في الكتابة، وهي الكتب التي لا يحظى بها إلا الأشخاص ذوي القدرة والمكانة لارتفاع ثمنها).

بعد ظهور الطباعة و انتشار الصحافة والمجلات و الكتب و شيوع الصحافة كخدمة أساسية من شأنها أن تساهم في تهديد الأنظمة السياسية و تغيير المجتمعات أصبح الحديث جادا حول مسألة علاقة الصحافة بالسلطة و هي العلاقة التي يقصد بها أساسا بعلاقة نظام تدفق المعلومات بالنظام السياسي الحاكم. هذه العلاقة التي تطورت بتطور وسائل الاتصال الجماهيرية، و هي العلاقة أيضا التي أخذت ملامح متعددة يمكننا أن نسميها بمنطق الأيديولوجية الإعلامية للأنظمة السياسية أين تلعب الأيديولوجيا السياسية والفكرية دورا هاما في تحديد نظام تدفق المعلومات داخل المجتمع. إلا أننا شهدنا مع شيوع شبكات التواصل الاجتماعي و تعميم استخدام الإنترنيت وتطور وسائل الاتصال التكنولوجية تلاشي هذه العلاقة التقليدية بين النظام الإعلامي وتدفق المعلومات و ذلك بعد أن وجدت الحكومات والأنظمة السياسية نفسها أمام حتمية التكنولوجيا والتطور السريع و المتزايد لوسائل الاتصال، وأصبحت المجتمعات منفلتة من كل أشكال الرقابة التقليدية.

2. منطق الأيديولوجية الإعلامية لتدفق المعلومات:

نشير إلى أن الأيديولوجيا Ideology كمصطلح، مركب من كلمتين يونانيتين (Idea) بمعنى فكرة و (Logos) بمعنى علم، منطق، خطاب أو شعار،

وبالتالي فهي تعني علم الأفكار. وقد أورد حجاب (2004) أن الكلمة قد استعملت لأول مرة عن طريق الفيلسوف الفرنسي ديستودي ترسي (1755–1826) في كتابه عناصر الايدولوجيا، و كان يقصد بها علم الأفكار. كما أفاد عبد الفتاح (2008) أن المصطلح يشير إلى مجموعة متماسكة من الأفكار التي تفسر الطبيعة و المجتمع والفرد على نحو معين.

إذن أصبح من الناحية الفكرية و العلمية يصطلح على كل نظام من الأفكار ذو تصور في تفسير العالم على أنه توجه أيديولوجي. وبالتالي فإن الإعتقاد بقدرة أحد التوجهات _السلطوي أو الشيوعي أو الليبرالي أو الاستقلالي_ على تسيير الحياة السياسية و الإعلامية والاجتماعية والاقتصادية و الثقافية هو بمثابة منطق أيديولوجي حاكم، و هذا ماكان سائدا في كل العالم و لا يزال حاليا في بعض الدول من العالم.

و بالحديث عن المنطق الأيديولوجي لتدفق المعلومات داخل النظام الاجتماعي يمكن أن نركز النظر على توجهين فلسفيين إعلاميين كبيرين تولدت عنهما توجهات جزئية أخرى. ويتمثلان في التوجه الإعلامي السلطوي و التوجه الإعلامي الليبرالي.

و كلمحة مختصرة عن هذه التوجهات التي نسميها في دراستنا هذه بالتوجهات التي كرست لمنطق الأيديولوجية الإعلامية نفيد أن:

1.2 التوجه الإعلامي السلطوي:

ينبع هذا التوجه من مرجعية فكرية تحظى بشهرة كبيرة وواسعة داخل الأوساط الفلسفية والفكرية نظرا لوزن المفكرين و الفلاسفة الذين نظروا لهذا التصور الأبوي، والذين نجملهم و نلخص أفكارهم في مايلي:

– أفكار أفلطون صاحب التوجه الأبوي لنظام الحكم. و هو التوجه الذي ينظر أساسا إلى المجتمع و نظام الحكم يمثلان كيان واحد يتماثل مع الجسد الإنساني:الحاكم على أنه يمثل العقل المدبر و المحكومين على أنهم يمثلون العاطفة. فالحاكم في فلسفة أفلاطون ينبغي أن يكون فيلسوفا حكيما، وهو بذلك إما فيلسوفا حكيما وصل إلى الحكم أو حاكما يصبح فيلسوفا وفي كلتا الحالتين فإن الهدف واحد هو: نظام حكم الفيلسوف الملك (رزين، 2022). إذن الحاكم هو صاحب العقل الحكيم والرأي السديد، وأما بقية الناس فهم يمثلون العاطفة وبالتالي لا يعول عليها باعتبارها لا تنتج الحكمة. هذا التصور يعتبر أن الحاكم هو المطلع على الشؤون و الأحوال و هو الأكثر حكمة و الأكثر معرفة و أما المحكومين فهو الأقل إطلاعا والأقل حكمة والأقل معرفة بل يمكن أن نعتبر أن تدفق المعلومات للمحكومين وهم بهذا الوعي المسطح لا ينفعهم في شيء بل قد يزيد الأمر خطورة بإعتبار وعيهم المسطح.

لقد ارتكزت فلسفة أفلاطون و معلمه سقراط على المنظور الأبوي، الذي يتصور أن علاقة الحاكم بالمحكوم ينبغي أن تحاكي علاقة الأب بأبنائه. والسيد بعبده، والعقل بسائر الجسد.

– أفكار أرسطو الذي تأثر بأفلاطون، وفي ذات الوقت استطاع أن يذهب مذهبا مختلفا. يعطي أرسطو أهمية بالغة للتوافق الذي ينبغي أن يحصل بين الرأس والجسم، هذا التوافق الذي يحقق سلامة البنية و وحدة المصلحة و المنفعة، منطلقا

من مجموعة من المفاهيم الأساسية وهي : الأسرة، الدولة، المواطن، العدالة، المجتمع المدني، السياسة، النظام السياسي، الحاكم، السيد و العبد. وهي المفاهيم التي تعطي التصور المقاصدي للفيلسوف (رزين، 2022).

– أفكار ميكيافيللي Machiavelli التي ظهرت في كتابه الأمير الذي كتبه ليقدمه كهدية إلى لورنزو إبن لبيرو دي ميديشي سنة 1519، ويذهب ميكيافيللي (د.ت/2004) إلى اعتبار أن ممارسة التسلط للسيطرة على الشعوب منهجا دوليا قد ثبتت نجاعته تاريخيا، و هو بذلك يجيز الاستحواذ على الحكم بالقوة. كما يرى أن إذعان الشعوب لحكامهم يأتي إراديا، و هذا الإذعان يغذيه اعتقادهم أن الحكام سيعملون على تغيير أحوالهم و ظروفهم إلى الأحسن.

و بالحديث عن نظام تدفق المعلومات في ظل التوجه الإعلامي السلطوي أورد علي عبد الفتاح علي (2015) أن سيبرت peterson Siebert (1956) عن الكاتب الإنجليزي ساميول جونسون أن كل مجتمع له الحق في المحافظة على سلامه و أمنه ونظامه العام، و عملا من أجل تحقيق هذا الهدف يصبح لكل حكومة الحق في منع الآراء التي تمثل خطرا على سلامة المجتمع.

لقد عاشت أوروبا لفترة طويلة تحت حكم هذا التوجه الفكري لنظام تدفق المعلومات داخل المجتمع، إلى أن حل الفكر التنويري و الذي ساهم بدوره في خلق توجه جديد إنطلاقا من تحرير الفكر و الهياكل و المؤسسات.

نشير إلى أن الدول النامية كانت قد توجهت منذ تأسسها نحو الفكر السلطوي سياسيا و إعلاميا، و ذلك لضرورات أمنية لعل من أبرزها مناوءة الامبريالية العالمية و تصديا لكافة أشكال تدخلاتها.

و تعتبر النظرية الشيوعية والتي كانت تسمى بالنظرية السوفياتية التجلي الأخير للنظرية السلطوية التي سادت في مرحلة من المراحل، إلى أن أصبحت تحت مسمى النظرية الشيوعية ذلك أنها أصبحت منحصرة في ثلاث دول فقط و هي الصين، كوريا الشمالية وكوبا وذلك بعد أن تفكك الاتحاد السوفياتي كليا، تنطلق النظرية من أفكار ماركس و انجلز و لينين، وتعتبر النظرية أن قطاع الإعلام هو وسيلة تابعة للحزب الحاكم و هو الأداة الأساسية لتزكية مشاريع الحكومة و أهدافها.

و تتفق كلا النظريتين في كون أن الهدف الأسمى من وراء الخدمة الإعلامية هو خدمة المجتمع و مصلحة الجماعة و بالتالي فإن تدفق المعلومات في ظل هذا التوجه الفكري الذي يربط النظريتين يراعي مصلحة الجماعة و يهدف إلى الحفاظ على الأمن والاستقرار و الانسجام. مع الإشارة إلى وجود فرق بين النظريتين في كون أن النظرية السلطوية تتيح نظام المكية الخاصة لوسائل الإعلام على عكس النظرية الشيوعية التي تعتبر أن قطاع الإعلام من اختصاص الحزب الشيوعي.

2.2 التوجه الإعلامي الليبرالي:

تعود الجذور الأولى لنظرية الحرية لحركة الإصلاح الديني البروتستانتي التي أعلن عنها مارتن لوثر (1483–1546) داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ضد تعاليم الكنسية الكاثوليكية بعد تعليقه لـ 95 مطلبا على باب كنيسة القلعة بـ فيتنبرج بألمانيا يوم 31 أكتوبر من عام 1517 و هي عبارة عن أطروحات إصلاحية دينية اعترضت على الفهم الخاطئ لعلاقة الإنسان بالله و الذي كان يحمله رجال الدين بداية من صكوك الغفران التي كان يمنحها رجال الكنيسة للناس المعترفون بذنوبهم مقابل مبلغ من المال مقداره يختلف باختلاف الذنوب المعترف بها من قبل

الأشخاص. و كانت هذه الحركة بمثابة بداية الانعتاق التحرر من ميثاق الحكم الأبوي السلطوي الذي كان يمارسه التحالف القوي بين الدين والسياسة.

لقد لعبت الظروف السياسية التي عرفتها أوروبا خصوصا بعد الحصار الذي فرضه بلاطي الحكم و الكنيسة على حرية التفكير و الصحافة و النشر (الحصار الذي أصاب عملية تدفق المعلومات داخل المجتمعات الأوروبية آنذاك). هذه الظروف كانت قد دفعت مجموعة من الفلاسفة إلى التفكير بعمق لتخليص أوروبا مما كانت تعاني بفعل هذا الانغلاق الذي جاء جراء تحالف رجال الدين مع رجال السياسة من أجل ممارسة التسلط. و قد أنتج هؤلاء الفلاسفة **خلال الفترة الممتدة ما بين نهاية** القرن 17 و بداية القرن 18، مجموعة من الأفكار ساهمت في التأسيس للنظرية. ويمكن أن نحصر هؤلاء الفلاسفة في:

- جون ميلتون Milton John (1608–1674) وهو شاعر إنجليزي من أبرز ما قدم كانت قصيدته بعنوان الفردوس المفقود. كان ميلتون يرى أن تجلي العقل البشري يظهر في القدرة على الاختيار بحرية.

- جون لوك Locke John (1632–1704) و هو فيلسوف و مفكر سياسي إنجليزي قدم مقالا حول الفهم البشري و رسالتان حول الحكم المدني بالإضافة إلى رسالة حول التسامح. كان يرى انه يتوجب على الدولة حماية الحرية و حماية حقوق الشعب والثروة كما ينبغي على الشعب العمل على تغيير الحكومة التي لا تحمي حريته وحقوقه.

- فولتير Voltaire (1694–1778) و هو أديب و مؤرخ و فيلسوف فرنسي من أهم أعماله الرسائل الفلسفية. كان فولتير ناقدا للكنيسة الكاثوليكية و داعيا إلى الإصلاح الاجتماعي.

- جون جاك روسو Jean Jacques Rousseau (1712-1778) وهو أديب وفيلسوف جنيفي من أبرز أعماله العقد الاجتماعي. كان يرى أن تخلي الإنسان عن حريته هو تخل عن إنسانيته.

- جون ستيوارت ميل John Stuart Mill (1806-1873) و هو فيلسوف بريطاني كتب عن المنطق و عن الحرية و عن الاقتصاد و السياسة، ينظر ميل إلى العدالة والحرية على أنهما من أرقى و أسمى المبادئ الأساسية للحياة السعيدة.

3.2 علاقة النظام الإعلامي للدولة بعقيدتها الأيديولوجية:

نشير إلى وجود علاقة وطيدة ما بين أيديولوجية نظام كل دولة و نظامها الإعلامي. فكل نظام سياسي ينتج نظاما إعلاميا على شاكلته: في أمريكا و دول أوروبا النظام الإعلامي يدين بالحرية كمعتقد، في كوريا الشمالية وبعض الدول الإفريقية و العربية النظام الإعلامي يعتنق أفكار السلطة وفلسفتها.

إن منطق الأيديولوجية الإعلامية يساهم بشكل حاسم في تحديد شكل ومضمون وأسلوب تدفق المعلومات داخل المجتمع، ذلك أن الغرض من الأيديولوجية الإعلامية هو الرسالة والجمهور.

فالنظام الإعلامي السلطوي ينظر إلى الجمهور على أنه تحت كفالة النخبة الحاكمة، هذه الأخيرة التي تمثل عقل المجتمع والأكثر دراية بالمصالح و المنافع والمضار وبالتالي فإن الرسائل و المعلومات و المعارف النافعة و الضارة للمجتمع من شأن النظام السياسي هو من يحددها وهو الوحيد الذي يستطيع التعرف عليها فلا

تمر معلومة إلا بتزكية الحاكم ومعاونيه وهذا تحت شعار الحماية الأمنية للمصلحة العامة و خدمة الصالح العام.

والنظام الإعلامي الليبرالي يتبنى فكرة السوق الحر للأفكار وينظر إلى الإنسان على انه ولد حرا و حريته هذه لا تجلب له إلا الخير فلا ضرر في تدفق مختلف الأفكار والمعلومات والمعارف بل لابد من تعزيز مثل هكذا تدفق لأن الإنسان ذو عقل و يستطيع أن يختار ما يشاء و ما ينفعه ويتجنب ما يضره :فأما الأفكار الجيدة فتسود و تسمو و أما الأفكار الرديئة والسيئة فتضمحل وتموت.

هذان النموذجان من بنات أفكار فلاسفة و مفكرين استطاعوا أن يبرهنوا على واقعية وصدق ما قدموه، و بالتالي لا يمكننا إلا أن نقول أن ما نظر له هؤلاء لا يمثل في الأخير إلا توجها أيديولوجيا مفسرا للعالم و الحياة و المجتمع و الإنسان.

نشير في نهاية هذا المبحث إلى أن عملية السيطرة على المعلومات بفعل النظام الإعلامي للبلد يحدث فجوة معرفية بين المجتمع و المجتمعات الأخرى التي تحظى بسرعة وانفتاح فيما يتعلق بتدفق المعلومات، وهذا ما أشارت إليه نتائج بحوث اختبار نظرية فجوة المعرفة Knowledge Gap في مستواها المجتمعي الاشمل: وهو المستوى الذي يشمل طبيعة البناء الاجتماعي و أساليب نشر المعلومات وتوزيعها ووسائل الاتصال المتاحة وطبيعة الصراع الاجتماعي و طبيعة ملكية وسائل الإعلام و طرق تمويلها كما أورد الباحثان مكاوي و السيد (2003) عن Donohue, Tichenor, Olien

3. موجز نقدي لنظام تدفق المعلومات في ظل التعددية الإعلامية:

بالحديث عن المنطق الأيديولوجي الحاكم للنظام الإعلامي قد يتوهم بعض أنصار التوجه الليبرالي أن النظام الإعلامي الذي يعتنق شعار الحرية هو توجه منعتق من قيد التأدلج ولا يمكننا اعتباره منتمي لأيديولوجيا قائمة بذاتها. وهنا نرد لنقول أن الحرية التي نادى بها الفلاسفة و المفكرين تبقى مجرد أفكار فلسفية طائرة في السماء و لم تنزل إلى أرض الواقع، فالنظام الإعلامي الليبرالي الذي يرفع شعار حرية الرأي و التعبير بكفالته لحرية التعددية الإعلامية و حرية الملكية الخاصة لوسائل الإعلام و الاتصال المختلفة وحرية الأفراد في التعبير عن أفكارهم ورغباتهم و حرية انتقال المعلومات بسلاسة داخل النضام الاجتماعي هو نظام نسي أنه مؤدلج بدليل أنه أصبح تابعا لأيديولوجيا سياسية واقتصادية واقعية. فإن النظام الإعلامي في الدول الرأسمالية مملوك لأصحاب المصالح والنفوذ بحكم القاعدة المنطقية الصارمة: من يملك المال يملك وسائل الإعلام.. و التي نضيف عليها: و من يملك وسائل الإعلام يبث ما يرغب و ما يفكر وما يريد، و بالتالي فإن هذا النظام الإعلامي قد كرس لثنائية المركز والهامش: المركز الذي يهمن عليه أصحاب المال بمؤسساتهم الإعلامية، والهامش الواسع والذي يعيش فيه عامة الناس البعيدين عن وسائل الإعلام، والذين تتدفق إليهم معلومات ومعارف و توجهات أصحاب المصالح.

إن التعددية الإعلامية التي ينادي بها النظام العالمي الليبرالي هي تعددية مؤدلجة بامتياز، أو على الأقل يمكننا أن نصفها بكونها تعددية إعلامية حامية لمصالح أصحاب النفوذ و هي تبث أفكارهم و وجهات نظرهم و فهمهم الذي لا يخدم الانسان البسيط.. الانسان الذي لا يملك وسائل القوة و السيطرة. بل نذهب بعيدا لنقول أن المعارف والنظريات العلمية التي يرتكز عليها النظام العالمي الليبرالي و يعمل على بثها و تعزيز تدفقها هي نظريات و معارف تخدم فلسفته وفكره: فنموذج

التأثير القوي والمباشر لوسائل الإعلام و الذي اشتغلت مراكز البحث على الاهتمام به ودراسته تشريحا يعزز لفكرة أن الإنسان سلبي و ضعيف أمام قوة ما تبثه وسائل الإعلام، هذا النوع من النظريات يساهم فكريا و علميا في تزييف الوعي وتجاوز الاهتمام بالسياقات الكبرى التي أنتجت مثل هكذا إنسان و التي تتمثل أساسا في: طبيعة الأنظمة السياسية، و النظام الإعلامي و النظام الاقتصادي العالمي. هنا نتذكر ما قاله الأكاديمي و المفكر الفرنسي ميشال فوكو أن النظرية العلمية تخدم السلطة وهي تساوي إستراتيجية التدخل. و نتذكر أيضا الأكاديمي النمساوي بول فايربند حينما قال أن النظرية العلمية هي فعل أيديولوجي.

وإضافة إلى هذا نشير إلى أن النصوص الإعلامية و محتوياتها تظهر تبطينا لحقيقة الفروقات الاجتماعية، و تعمل على تزييف وعي الجماهير: يستعرض هاربرت شيلر في حديثه عن التضليل الإعلامي و الوعي المعلب في كتابه المتلاعبون بالعقول خمس أساطير تؤسس للمضمون الإعلامي في عموم وسائل الإعلام خصوصا منها وسائل إعلام الأنظمة الديمقراطية، و هي: 1/أسطورة الفردية و الاختيار الشخصي، 2/أسطورة الحياد، 3/أسطورة الطبيعة الإنسانية الثابتة (و التي تم بفعل الترويج لها تبرير الجرائم وشرعنة الجشع، و تعزيز بعض الاعتقادات المغرضة من خلال بعض النظريات و مراكز البحث)، 4/أسطورة غياب الصراع الاجتماعي (والتي تم بفعلها تقديم العنف على أنه فردي، والزعم بأن عملية عرض و تحليل الصراعات الاجتماعية لا يعجب المشاهدين)، /أسطورة التعددية الإعلامية.

إذن يمكننا أن نقول بوضوح أن الأنظمة الإعلامية التقليدية هي في عمومها إحدى بنات المنطق الأيديولوجي السائد. و بالتالي فإن كل تدفق للمعلومات في ظل هذا المنطق الأيديولوجي هو تدفق ليس حرا شكلا و مضمونا و أسلوبا بصفة كلية.

4. منطق التكنولوجيا ذات التدفق الحر للمعلومات:

لقد قدم عالم الاجتماع الأمريكي دانيال بيل Daniel Bell (1919-2011) في كتابه The End Of Ideology (نهاية الإيديولوجيا) عام 1960 تصورا مفاده أن تأثير التفسيرات الأيديولوجية قد إنتهى. و هذا ما نلمسه حقا في الحياة الاجتماعية، نلمسه بشكل واضح كلما ابتعدنا عن الدوائر الرسمية، ففي الحياة الشعبية التي تمثل المساحة الأوسع نلاحظ أن كل التفسيرات التي كانت سائدة في مرحلة من المراحل قد تلاشت فلا توجد أفكار بعينها تسيطر على اهتمامات الناس و قناعاتهم باستثناء الأفكار السريعة و المتنوعة التي تبثها شبكة القرية الكونية.

لقد أصبحت وسائل تدفق المعلومات داخل المجتمع تشكل حتمية أساسية لشكل المجتمع ومضمونه و يمكننا اختبار هذا الكلام من خلال دراسة خصائص وسائل الاتصال في كل فترة من الفترات التي مرت بها المجتمعات عبر التاريخ الإنساني، و هذا ما قال به العالم الأمريكي مارشال ماكلوهان، إذ كان يرى ماكلوهان أن مواصفات الوسيلة الاتصالية الأكثر تأثيرا في فترة من الفترات هي من يؤثر في تفكير المجتمعات أكثر من محتوى الرسالة نفسها " فالتحول في تكنولوجيا الاتصال يؤدي إلى التحول في التنظيم الاجتماعي، بل في حواس الإنسان التي تصبح امتدادا لها" (بشير العلاق، 2010، ص 85).

إننا نعتقد أن الإنعتاق الحقيقي من المنطق الأيديولوجي للنظام الإعلامي قد تم تسجيله مع تطور شبكة الإنترنيت و تطور الألياف البصرية و تطور سرعة تدفق الشبكة و دخول الأجهزة الاتصالية الذكية و تطور البرمجيات و الحواسيب و تطور الوسائط المتعددة وتحسن الحالة المعيشية للإنسان المعاصر و تراجع تكلفة الحصول على الجهاز الذكي للاتصال وتراجع تكلفة الحصول على حزمة الانترنيت بتدفق جيد. هذه الترسانة من التحسينات التي أنتجها العلم والتكنولوجيا هي الطفرة الحقيقية التي ساهمت في دخول الانسان إلى عصر مابعد الحداثة عصر الانعتاق من الفهومات الأيديولوجية المقيدة. لقد انتهى عصر التفسيرات الأيديولوجية.

لقد ذهب هابرماس و هايدجر و جاك إيلول و فلاسفة مدرسة فرانكفورت إلى أن العلم والتكنولوجيا أصبحا بمثابة أيديولوجيا جديدة، أو هما على الأقل يقومان بالدور التقليدي الذي كانت تقوم به الأيديولوجيا (حسن منصور، الحوار المتمدن، http://www.ahewar.org).

لقد تحرر الإنسان من سلطة التدفق الإعلامي المغرض، و أصبح بإمكانه أن يختار ما يريد وقت ما يريد و بالكيفية التي يريد بالمدة الكافية لتحقيق اشباعاته.

لقد أصبحنا كباحثين علميين متشبعين بمصادر المعلومات و كثافتها، لقد أصبنا بتخمة في مصادر الحصول على المعلومات بعدما كنا منذ مدة قليلة نعاني من الحصول على المراجع لإعداد ورقة بحثية بسيطة.

لقد أصبح الإنسان ذو بعدا كونيا بعدما كان ذو بعدا قرويا... لقد أصبحنا نتكلم عن الغرفة الكونية بعدما كنا نتكلم عن القرية الكونية: الغرفة المعولمة أو

الغرف المعولمة التي نشاهدها على برامج التيكتوك و اليوتيوب و الفايسبوك و الإنستغرام.

5.خاتمة:

نرصد اليوم نحن كباحثين هذا التحول الإعلامي العالمي في نظام تدفق المعلومات والذي حددناه وحصرناه بين ثنائية الأيديولوجيا والتكنولوجيا، تحول غير ملامح المجتمعات، غير الكثير من المقدسات والثوابت. وهو تحول من خطورة الرسالة الإعلامية إلى خطورة الوسيلة الاتصالية، و الذي يثبت صحة افتراض العالم الأمريكي مارشال ماكلوهان القائل بأن " الوسيلة هي الرسالة "، و هذا ما يعرف عندنا في علوم الإعلام والاتصال بالعودة المتجددة نحو منظور قوة الوسيلة الاتصالية، الوسيلة التي تصيغ المجتمع و تؤثر فيه أكثر مما تصيغه و تؤثر فيه المؤثرات الأخرى.

نشير في الأخير إلى أن وسائل الاتصال الحديثة أصبحت تتسم بكونها سريعة التطور والتحول، و بالتالي فإننا سنتجاوز الحديث عن هذا التحول من خلال نظرة شمولية، إذ يتوجب علينا كباحثين أن نخوض البحث داخل هذه الموجة الجديدة، وستوفر أبحاثنا الحالية والآتية مادة مرجعية مهمة لتحليل التحول العالمي لفلسفة الإعلام و تأثيراته.

5.المراجع:

- بشير العلاق، (2010)، نظريات الاتصال مدخل متكامل، الأردن، دار اليازوري.
- حجاب، محمد منير. (2004). المعجم الإعلامي. دار الفجر. القاهرة.

- حسن عماد مكاي، ليلى حسين السيد،(2003)، الاتصال ونظرياته المعاصرة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- حسن منصور، أشرف .(07-01-2007). " الأيديولوجيا في عصر تكنولوجيا الاتصال" . الحوار المتمدن. العدد: 1788. http://www.ahewar.org
- رزين محمد، (2022)، الحاكم و المحكوم في التنظيرات الأولى،مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 7، العدد: 1.
- عبد الفتاح، إسماعيل. (2008). معجم المصطلحات السياسية و الإستراتيجية. ط1. العربي للنشر. القاهرة.
- علي عبد الفتاح علي، (2015)، الصحفي و السلطة، الأردن، دار الأيام، 2015.
- مكيافيللي، نيقولا، مكتبة ابن سينا، (2004). كتاب الأمير. (ترجمة أكرم مؤمن) . مكتبة ابن سينا (د.ت).
- ملفين ديفلير، ساندرا بول روكيتش، (2002)، نظريات وسائل الإعلام، تر: كمال عبد الرؤوف، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية.